



With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

The translation to Arabic was made possible through the generous funding of The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion.

"بِخُوقُوتَاي" هو النصُّ الأسبوعي العاشر والأخير من كتاب "فَيَقْرَا" (أي سفر اللاويين)، وهذا النصُّ الأسبوعي يبدأ بالآية الثالثة من المقطع السادس والعشرين، وينتهي بالآية الرابعة والثلاثين من المقطع السابع والعشرين.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

نَحْنُ شَعْبُ الْعَهْدِ

في هذا النصِّ التوراتيِّ الأسبوعي "بِخُوقُوتَاي"، لم تكن "ذَرَّةُ الذَّهَبِ" كَامِنَةً في البركات، بل عَثَرَ عَلَيْهَا حُكَمَاءُ الْيَهُودِ في قلبِ إحدى أقسى اللَّعْنَاتِ التي وُجِّهَتْ إلى شعبِ، وأشدَّها إنذارًا وتحذيرًا. وفي هذا السياق، يَصِفُ نَبِيُّ اللَّهِ ورسولُهُ موشيه/موسى شعبًا يَفِرُّ من أعدائه، كما ورد في الآيتين السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين من المَقْطَعِ السادس والعشرين من سفر اللاويين:

"وَالْبَاقُونَ مِنْكُمْ، أَذْخَلُ الْجُبْنَ فِي قُلُوبِهِمْ، فِي بُلْدَانِ أَعْدَائِهِمْ، حَتَّى أَنَّهُ لَوْ لَحِقَهُمْ صَوْتُ وَرَقَةٍ مُنْدَفِعَةٍ، فَهَرَبُوا كَالْهَارِبِ مِنَ السَّيْفِ، وَوَقَعُوا مِنْ غَيْرِ كَالْبِ. وَيَعْتَزُّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، كَمَا يَكُونُ مِنْ قِبَلِ السَّيْفِ، مِنْ غَيْرِ كَالْبِ، وَلَا يَكُونُ لَكُمْ قَوَامًا، بَيْنَ يَدَيِ أَعْدَائِكُمْ".

ظاهريًّا، لا يبدو أنَّ هناك أيَّ شيءٍ مُبَشِّرٍ في هذا الكابوس. غير أنَّ الحكماء قالوا إنَّ قوله "وَيَعْتَزُّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ" ينبغي أن يُفْرَأَ وَيُفْهَمَ "يَعْتَزُّونَ بِسَبَبٍ/ مِنْ أَجْلِ بَعْضِهِمْ"، وهذا يُعَلِّمُنَا أنَّ جميعَ أفرادِ بني يِسْرَائِيلَ مسؤولونَ عن بعضهم البعض.¹

هذا نصٌّ في غاية الغرابة: لماذا يُذَكِّرُ هذا المبدأ هنا تحديدًا؟ من المؤكَّد أنَّ التوراة بأكملها هي شهادةٌ على هذا المبدأ، فلماذا يَرُدُّ هنا بَيِّنُ اللَّعْنَاتِ؟ فعندما يتحدَّثُ نَبِيُّ اللَّهِ ورسولُهُ موشيه عن ثوابِ حفظِ العهدِ والالتزامِ بوصايا اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّه يتحدَّثُ بصيغةِ الجمعِ، كما ورد على سبيلِ المثالِ في الآيتين الرابعة والخامسة من المَقْطَعِ السادس والعشرين من سفر اللاويين: "نَزَلْتُ أَغْنِيَانُكُمْ (جمع غيث) فِي أَوْقَاتِهَا، وَأَخْرَجْتُ الْأَرْضَ أَذَاءَهَا (محاصيلها)، وَشَجَرْتُ الصَّخْرَاءَ يُخْرِجُ ثَمَرَهُ. حَتَّى أَذْرَكَ لَكُمْ الدَّوْسَ الْقَطَافَ، وَالْقَطَافَ أَذْرَكَ الْبِدَارَ، وَتَأْكُلُونَ طَعَامَكُمْ هَنِيئًا، وَتُقِيمُونَ وَاثِقِينَ فِي بِلَدِكُمْ".

فالمبدأ المتمثل في أنَّ اليهود تقع على عاتقهم مسؤولية جماعية تجاه بعضهم البعض، وأنَّ مصائرهم وأقدارهم متشابكة، كان يمكن استنباطه من البركات التي تُعدُّنا بها التوراة، فلماذا نبحث عنه في اللعنات؟ والجواب هو أنَّ فكرة "تداخل المصائر" لا تختصُّ بها اليهودية وحدها، فهذا ينطبق على مواطني أيِّ شعب. فإذا كان الاقتصاد مزدهراً، ستعمُّ الفائدة على غالبية المواطنين، وإذا حدث ركود اقتصاديٍّ، سيعاني الكثير من الناس. وإذا تفاقمَت الجريمة في أحد الأحياء، خاف أهلُه من السير في الشوارع، أمَّا إذا ساد الأمن والنظام، وترقَّق الناس وساعدوا بعضهم البعض، سادت أجواء الخير وعمَّ الرفاه في البلاد، فنحنُ كائنات اجتماعية، ويساهم المجتمع الذي نعيش فيه والثقافة التي نحيا بها في فتح الآفاق أمام إمكاناتنا.

لقد انطبق ذلك جميعه على بني إسرائيل ما داموا شعباً يعيش على أرضه. ولكن ماذا عن الوقت الذي عانوا فيه من الهزيمة والنفي، ثم تشبَّثوا في أنحاء العالم؟ عندئذ فقدوا جميع السمات التقليدية التي تميَّز الشعوب، إذ لم يعودوا يعيشون في المكان ذاته، أو يتحدثون لغة الحياة اليومية نفسها. فبينما كان الحاخام شلومو يتسحقي، المعروف بـ"راشي"، وعائلته يعيشون في أوروبا الشمالية المسيحية ويتحدثون اللغة الفرنسية، كان الحاخام موشيه/موسى بن ميمون، الملقَّب بـ"رمبام"، يعيش في مصر الإسلامية، حيث كان يتحدث العربية ويكتب بها.

كذلك، لم يشترك اليهود في المنفى في مصير واحد. فبينما كان يهود أوروبا الشمالية يقاسون الاضطهاد والمجازر إبَّان الحملات الصليبية، كان يهود إسبانيا يعيشون عصرهم الذهبي. ثم حين طُرد يهود إسبانيا وتشبَّثوا في أنحاء العالم كلاجئين، كان يهود بولندا يهنؤون بلحظة نادرة ومضيئة من التسامح، فبأي معنى إذن ظلَّوا مسؤولين عن بعضهم البعض؟ وكيف ظلَّوا شعباً واحداً؟ وكما عبَّر كاتب المزمور المائة والسابع والثلاثين: "كَيْفَ نُرْنَمُ تَرْنِمةَ الرَّبِّ فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ؟".

لا يوجد في التوراة سوى نصَّين يتحدثان عن هذه الحال، وأقصد تحديدًا النصَّين اللذين يتحدثان عن اللعنات: أحدهما يردُّ في النصِّ التوراتيِّ الأسبوعيِّ الذي بين أيدينا "بِخُوفُوتاي"، والآخر يردُّ في سفر التثنية في النصِّ التوراتيِّ الأسبوعيِّ "كي تَفُوا"، وهما وحدهما من نصوص التوراة اللذان يصفان زماناً يُنفَى فيه شعبُ إسرائيل ويتبدَّدون بين جميع شعوب الأرض كأنَّهم قد تبدَّدوا في أقاصي السماوات، كما عبَّر عن ذلك نبيُّ الله ورسوله موشيه في الآية الرابعة من المقطع الثلاثين من سفر التثنية: "لَوْ كَانَ فِي أَقْصَى السَّمَاءِ، لَجَمَعَ اللَّهُ رَبُّكَ شَمْلَكَ مِنْ تَمَّ وَلَقَدْ مَكَ".

ومع ذلك، ثمة ثلاثة فروق جوهرية بين هذين النصَّين، أولها، أنَّ النصَّ الوارد في سفر اللاويين جاء بصيغة الجمع، بينما جاء نصُّ سفر التثنية بصيغة المفرد. وثانيها أنَّ اللعنات في سفر اللاويين هي كلامُ الله عزَّ وجلَّ، أمَّا في سفر التثنية فهي كلماتُ نبيِّ الله ورسوله موشيه. والفرق الثالث هو أنَّ لعنات سفر التثنية لا تنتهي ببارقة أمل، بل يُختتم النصُّ بمشهدٍ قاتمٍ لا انفراج فيه، كما نقرأ في الآية الثامنة والستين من المقطع الثامن والعشرين من سفر التثنية: "...وَتُعْرَضُونَ هُنَاكَ لِلْبَيْعِ لِأَعْدَائِكُمْ عِبِيدًا وَإِمَاءً وَلَيْسَ مُشْتَرِيًّا (أي لن يرغب أحد في شرائكم)".

أمَّا اللعنات الواردة في سفر اللاويين فتنتهي بآملٍ عظيمٍ، كما ورد في الآيتين الرابعة والأربعين والخامسة والأربعين من المقطع السادس والعشرين من سفر اللاويين:

"وَأَيْضًا مَعَ هَذِهِ الْأُمُورِ، مَعَ كَوْنِهِمْ فِي بُلْدَانٍ أَعْدَائِهِمْ، لَا أَرْهَدُ فِيهِمْ وَلَا أَقْلَاهُمْ (أي لا أكرههم ولا أتركهم) لِأَفْنِيهِمْ، وَلَا أَفْسَحُ عَهْدِي مَعَهُمْ، لِأَنِّي اللَّهُ رَبُّهُمْ. وَأَذْكُرُ لَهُمْ عَهْدَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ أَخْرَجْتُهُمْ مِنْ بَلَدٍ مِصْرَ بِخَضِرَةِ الْأُمَمِ، لِأَكُونَ لَهُمُ إِلَهًا، أَنَا اللَّهُ صَادِقُ الْوَعْدِ".

1. Sifra ad loc.; Sanhedrin 27b; Shevuot 39a.

فبحسب سفر اللاويين، لَنْ يُهْلِكَ اللهُ الشَّعْبَ الْيَهُودِي وَلَنْ يَرْفُضَهُمْ أَبَدًا حَتَّى فِي أَحْلَكَ أَوْقَاتِهِمْ. فالعهدُ بينهم وبين الله عَزَّ وَجَلَّ لا يزال نافذًا، وبنوده لا تزال ساريةً، وهذا يعني أَنَّ اليهود سيبقون مرتبطين ببعضهم البعض بروابط المسؤولية المتبادلة نفسها التي كانت تربطهم معًا وهم في أرضهم، ذلك أَنَّ عهدهم مع الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي جَعَلَ منهم شعبًا وربط أبناء هذا الشعب ببعضهم البعض، كما ربطهم بالله عَزَّ وَجَلَّ. ولذلك فإنَّهم، وإن تَعَتَّرَ بعضُهم ببعضٍ وهم يفرون من أعدائهم، يظلُّون مترابطين معًا بروابط المسؤولية المتبادلة، وسيظلُّون شعبًا يتقاسمُ مصيرًا وقدرًا مشتركين.

وهذه فكرةٌ نادرةٌ وخاصَّةٌ، وهي السَّمةُ الفريدة لما أُطلقَ عليه تسمية "سياسة العهد"، فقد أصبحت فكرةُ العهد عنصرًا أساسيًا في السياسة الغربيَّة عقب الإصلاح الديني، وشكَّلت الخطابَ السياسيَّ في سويسرا وهولندا واسكتلندا وإنجلترا في القرن السابع عشر، إذ جعل اختراع الطباعة وشيوع القراءة النَّاسَ يَظْلَعُونَ لأوَّلَ مرَّةٍ على الكتابِ المقدَّسِ اليهوديِّ الذي سَمَّاهُ المسيحيُّونَ "العهد القديم". وفي تلك البلدان تعلَّموا وجوبَ مقاومة الطُّغاة، وأنَّ الأوامرَ اللاأخلاقية ينبغي ألا تُطاع، وأنَّ الملوك لا يحكمون بحقِّ إلهيٍّ، بل بموافقة المحكومين فحسب.

وقد حمل الآباءُ الحُجَّاجُ هذه القناعاتِ معهم عندما أبحروا إلى أمريكا، لكن مع فرقٍ واحدٍ: أنَّ تلك القناعات لم تتلاشَ هناك مع الأيّام كما حدث في أوروبا. ولهذا فإنَّ الولاياتِ المتحدَّةَ اليوم هي الدولة الوحيدة التي لا يزال خطابُها السياسيَّ مؤطرًا بفكرة العهد.

وثمة مثالان نموذجيان على ذلك، وهما خطابُ تنصيب الرئيس الأمريكي الأسبق ليندون بينز جونسون عام 1965، وخطابُ التنصيب الثاني للرئيس الأسبق باراك أوباما عام 2013. إذ استخدم كلا الخطابين الأسلوب التوراتي البلاغي القائم على التكرار الدلالي، وكان عدد مرَّات التكرار فرديًّا، كلُّ مرَّةٍ ثلاثة أو خمسة أو سبعة. حيث استحضِر جونسون فكرة "العهد" خمس مرَّات، وبدأ أوباما خمس فقراتٍ من خطابه بعبارةٍ مفتاحيةٍ لسياسة العهد، وهي "نحن الشعب"، وهي عبارةٌ لم يستخدمها أيُّ سياسيٍّ بريطانيٍّ من قبل.

وفي مجتمعات العهد، أي المجتمعات القائمة حول فكرة العهد، يكون الشعبُ كلُّهُ هو المسؤول، أمام الله عَزَّ وَجَلَّ، عن مصير الأمة. وكما قال جونسون: "مصيْرُنَا كأمةٍ ومستقبلُنَا كشعبٍ لا يقومَان على مواطنٍ واحدٍ بل على جميع المواطنين".² وكما قال أوباما: "أنا وأنت، كمواطنين، لدينا القدرة على أن نرسِمَ مسارَ هذا البلد".³ وهذا هو جوهر العهد: نحن جميعًا نشترك في مصيرنا معًا، ولا يوجد انقسام في الشعب بين الحاكم والمُحكوم، بل نحن جميعًا نقسم مسؤولية بعضنا البعض، تحت سيادة الله عَزَّ وَجَلَّ.

غير أنَّ هذه ليست مسؤوليةً مفتوحةً بلا حدود، فلا يوجد في اليهودية ما يشبه تلك الفكرة المتحرِّزة وعديمة المعنى في النهاية، التي طرحها جان بول سارتر في كتابه "الوجود والعدم" عن "المسؤولية المطلقة"، إذ يقول: "إنَّ الإنسان، باعتباره محكومًا بالحرية، يحملُ على كتفيه ثِقْلَ العالمِ كلِّه، وهو مسؤولٌ عن العالمِ وعن ذاته، وذلك ما يُحدِّدُ الطريقة التي يوجَدُ فيها في العالم".⁴

وفي اليهودية نحن مسؤولون فقط عمَّا كان في وسعنا منعه ولم نفعل، كما ورد في التلمود في باب الشُّبَّات 54 ب: "من كان قادرًا أن ينهي أهلَ بيته عن الخطأ ولم يفعل، يُحاسَب عن أهلِ بيته. وإن كان قادرًا أن ينهي أهلَ مدينته ولم يفعل، يُحاسَب عن أهلِ مدينته. وإن كان قادرًا أن ينهي العالمَ كلِّه ولم يفعل، يُحاسَب عن العالمِ كلِّه".

2. Lyndon B. Johnson, Inaugural Address (United States Capitol, January 20, 1965).

3. Barack Obama, Second Inaugural Address (United States Capitol, January 21, 2013).

4. Jean-Paul Sartre, *Being and Nothingness*, trans. Hazel Barnes (New York: Washington Square Press, 1966), 707.

وتبقى هذه الفكرة قويّة ونادرة، وما يجعلها فريدةً في اليهوديّة هو أنّها سرت على شعبٍ تشبّت في أقطار الأرض، لا يجمعه إلاّ عهدٌ قطعه أجدادنا الأوائل مع الله عزّ وجلّ على جبل سيناء. ومع ذلك فإنّ فكرة العهد ما تزال، كما وصّحتُ، تُلهِم الخطاب السياسيّ الأمريكيّ حتّى اليوم، إذ تُبيّنُ هذه الفكرة لنا أنّنا مواطنون متساوون في "جمهورية الإيمان"، وأنّ المسؤولية لا يُمكنُ أن تُفوّض إلى الحكومات أو الرؤساء، بل هي حقٌّ لنا لا يُمكنُ التنازل عنه، وواجبٌ مُقدّس على كلّ واحدٍ مِنّا، فنحنُ كُفلاءٌ وحراسٌ لبعضنا البعض.

وهذا هو ما أعنيه بتلك الفكرة التي تبدو غريبةً في ظاهرها والتي دافعتُ عنها في جميع مقالات هذا الكتاب: أنّنا جميعًا مدعوون لأن نُصبحَ قادةً. وقد يقول قائل إنّ هذا غير ممكن، فإذا أصبح الجميع قادةً فمن سيبقى ليكون تابعًا؟

والمفهومُ الذي يحلُ التناقض الذي يُعبرُ عنه السؤال السابق هو "العهد". إنّ القيادة، كما أوضحتُ سابقًا، تعني قبولُ المسؤولية. فإذا كنّا جميعًا مسؤولين عن بعضنا البعض، فنحن أيضًا مدعوون جميعًا لكي نكون قادةً، على أن يقود كلّ واحدٍ مِنّا ضمن نطاق تأثيره، في أسرته، أو مجتمعه، أو مؤسّسته، أو في أي نطاقٍ أوسع من ذلك.

قد تصنع هذه الفكرة الجوهرية فرقًا هائلًا أحيانًا. ففي أواخر صيف عام 1999، كنتُ في مدينة بريشتينا أصدّر برنامجًا تلفزيونيًا لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عن تداعيات العملية العسكرية في كوسوفو. وأجريتُ مقابلةً مع الجنرال سير مايك جاكسون، قائد قوّات حلف الناتو آنذاك. ولدهشتي، شكرني على ما فعله "شعبي". فقد تولّى المجتمع اليهودي إدارة المدارس الابتدائية الثلاث والعشرين في المدينة، وقد قال الجنرال إنّ ذلك كان أعظمَ مساهمةٍ من أجل رفاه المدينة. فعندما يصبح ثمانمائة ألف شخصٍ لاجئين، ثم يعودون إلى بيوتهم، فإنّ أكثر ما يُطمئنهم بعودة الحياة إلى طبيعتها هو أن تفتح المدارس أبوابها في موعدها. ثم أضاف: "إنّنا ندينُ بالفضل للشعب اليهودي على ذلك".

وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، التقيتُ بالمسؤول عن المجتمع اليهودي في بريشتينا، وسألته عن عدد اليهود المقيمين حاليًا في المدينة، فأجاب: "أحد عشر". أمّا القصة، كما اكتشفتُ لاحقًا، فكانت على النحو الآتي: في الأيام الأولى من النزاع، أرسلت دولة إسرائيل*، جنبًا إلى جنبٍ مع سائر هيئات الإغاثة الدولية، فريقًا طبيًا ميدانيًا للعمل مع لاجئي كوسوفو الألبان. ولاحظ الفريق أنّ معظم المنظّمات كانت تركزُ جهودها على الكبار، وقد ظلّ الأطفال، الذين كانوا بعيدين عن بيوتهم وعاشوا الصدمة الناجمة عن الصراع، بلا رعاية مناسبةٍ، فأصبحوا في حالةٍ من الضياع والاضطراب الشديد.

وتواصلَ الفريقُ مع دولة إسرائيل وطلبَ متطوّعين شبابًا. فبادرتُ كلّ الحركات الشبابية في إسرائيل، من الأشدّ علمانيةً إلى الأكثر دينيًّا، بإرسال فرقٍ من القادة الشباب تتناوب فيما بينها على العمل كل أسبوعين. وقد عملوا مع الأطفال، ونظّموا مخيماتٍ صيفيةً، ومسابقات رياضيةً، وعروضًا مسرحيةً وموسيقيةً، وقاموا بكلِّ ما في وسعهم لتخفيف وطأة المنفى المؤقت على الأطفال. وكان الألبانُ في كوسوفو مسلمين، وبالنسبة لِكثيرٍ من هؤلاء الشبّان الإسرائيليّين، كان ذلك أوّل تواصلٍ وفرصة صداقةٍ لهم مع أطفالٍ من دينٍ آخر.

وقد حظي هذا الجهد بإشادةٍ كبيرة من "منظمة الأمم المتحدة للطفولة" المعروفة اختصارًا باسم "اليونيسف". وفي أعقاب ذلك طُلِب من "الشعب اليهودي"، أي من دولة إسرائيل، و"لجنة التوزيع الأمريكية اليهودية المشتركة"، وهي مؤسّسة أمريكية، وهيئات يهودية أخرى، أن تُشرف على إعادة النظام التعليمي في مدارس بريشتينا إلى وضعه الطبيعي.

*ملاحظة توضيحية من المترجم: اعتمدنا في هذا الكتاب كتابة "إسرائيل" بدلًا من "إسرائيل" حفاظًا على اللفظ الأقرب إلى الأصل العبري (יִשְׂרָאֵל)، ولإبراز المعنى الكامن في الاسم كما يرد في سفر التكوين، حيث مُنح يعقوب/يعقوب هذا الاسم بعد صراعه مع الملاك. أمّا كتابة "إسرائيل" فقد توجي، بحكم بنيتها في العربية، بجذرٍ مختلف (أ.س.ر) يرتبط بمعانٍ مثل الأسر أو القيد، وهو معنى لا يعكس الدلالة الأصلية للاسم في سياقه التوراتي، المرتبط بالمصارعة والمواجهة والثبات.

وقد علّمني ذلك الموقف قوّة مفهوم "جسد" في العبريّة، أي أعمال الإحسان، حين تمتدّ متجاوزةً حدود الأديان وتصلُ إلى الآخر. كما بيّنت لي الأثر العمليّ الذي تُحدثه مسؤوليتنا المتبادلة في توسيع نطاق الفعل اليهوديّ. فاليهود في العالم قلةٌ صغيرة، غير أنّ خيوط التضامن غير المرئيّة تعني أنّ أصغر جماعةٍ يهوديّةٍ تستطيع أن تستنهض الشعب اليهوديّ في جميع أنحاء العالم طلباً للعون، لتحقيق إنجازاتٍ قد تُعدّ استثنائيّةً حتّى بالنسبة إلى أممٍ تفوق الشعب اليهوديّ في أعدادها بأضعاف. وهكذا يتّضح جليّاً أنّه حين يتكاتف اليهودُ معاً في إطارٍ من المسؤوليّة الجماعيّة المتبادلة، فإنهم يُشكّلون قوّة هائلةً من أجل الخير.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion



Facebook Twitter Instagram YouTube | RABBISACKS.ORG